يا حسرتا على العراق !

كان العراق يوم كان حكامه ناسًا كالناس وعربًا كالعرب مظهرًا للقومية العربية، ومصدرًا للقوة الإسلامية، ومجمعًا للقيادة الروحية والثقافية والحضارية للشرق والغرب. فنى في وجوده العارم الخصب كل جنس فلم يبق متميزًا غير العرب، وكل دين فلم يبق ظاهرًا غير الإسلام، وكل لسان فلم يبق حيًا غير العربية، وكل سلطان فلم يبق قاهرًا غير الخلافة. ثم كان الفلك حينئذ بدور عربيًا على ملكوت محمد من شرق آسيا إلى غربي أوروبا، فتشرق شمس الحياة والمعرفة من أفق الرشيد وابنه المأمون في بغداد، لتلقي أضواءها الهادية على ملك العزيز بالله وابنه الحاكم في القاهرة. ثم ترسل من هناك أشعتها المحيية على سماء الناصر وابنه الحاكم في قرطبة، ومن هذه الخلافات الثلاثة التي انيتقت من العراق في القارات الثلاثة ظهرت كلمة الله، وبهرت حقيقة العلم، وازدهرت مدينة الإنسان، واتسعت العرب.

كذلك كان العراق أيام كان من خلفائه هرون والمأمون، ومن وزرائه الفضل وجعفر، ومن فقهائه أبو حنيفة وأبو يوسف، ومن أدبائه الأصمعي وأبو عبيدة، ومن شعرائه بشار وابن الرومي، ومن متصوفيه الحسنان البصري وابن سيرين. فلما غربت الشمس وجزر المد ووهن السلطان واستعجم اللسان وجفت مشارع الرافدين فنفت فوقها الضفادع وسعت حولها الأفاعي، آل الحكم فيه إلى عبد الإله ونوري. ثم أستوخم الأمر واستفحل الشرف آل بعدهما إلى قاسم والمهداوي. ومنذ يومئذ غامت سماء العراق بركام من السحائب الجون، لا تحمل الماء ولكن تحمل الدم، ولا ترسل الغيث ولكن ترسل السم. وتحت رعودها القاصفة وبروقها الخاطفة تنساب في الظلام الداجي زمر من شياطين الإنس، يمجُّون الكفر، ويشيعون الفحش، وينشرون الإرهاب، ويلحون على المؤمنين الآمنين بالقتل والسحل والتعذيب، ليخرجوهم من الإسلامية إلى الشيوعية، ومن العربية إلى الشعوبية، ومن شعب له كون بارز في الوطن العربي الأكبر، إلى مجتمع من أخلاط كردية وتركمانية وعربية لا يجمع بينها لسان ولا مجد ولا تاريخ.

* * * * *

وارحمتا للعراق الحبيب؟ بلغ به ذل الحال وسوء المآل أن يستبد بأمره رجلان من الطراز الأدنى أحدهما يحكمه بالنار والدمار والتفريق والفوضى ويزعم أن المجزر حكومة، والآخر يحاكمه بالطيش والفيش والتهريج والسفه ويزعم أن الملعب محكمة ! ولولا الظلام لما أبصر اليوم ورفرفت الخفافيش، ولولا الانقسام لما تسلط (الزعر) وحكمت (الحرافيش):

خلـــت الرقـــاع مـــن الرخـــاخ ففرزنـــــت فيهـــــا البيـــــادق !

لقد ابتلى العراق من قبل بالحجاج والقرامطة والزنوج والتتار والترك والإنجليز فما صنعوا به جميعاً ما صنع به قاسم وحده ! لم يستطيعوا بما أوتوا من ملكوت وجبروت أن يطفئوا نور الإسلام ولا أن يخفتوا صوت العروبة، ولكنه استطاع في أقل من عام أن يحمل بعض المسلمين العرب على أن يصيحوا في شارع (الرشيد) وفي ساحة (المأمون): لا إسلام ولا عروبة !.

وقوة هذا الرجل إنما أنته من ضعفه، فلو لم يكن ضعيفاً لما احتلت جسده قوى غيره، فهو كالصنم. شيء حقير في ذاته، ولكن الصنم – كما كانوا يتوهمون – تحل فيه الشياطين فينظرون بعينه وينطقون بلسانه ويبطشون بيده، ولذلك كان يعبد. وقاسم صورة من الإنس الأنيس ركب كل جارحة فيه عفريت. وللعفاريت أهواء متباينة تظهر آثارها في قوله وفعله؛ فهو كافر ومؤمن، وشيوعي ورأسمالي، وروسي وانجليزي، وصهيوني وعربي؛ وهو أهل لأن يكون أي شيء إلا أن يكون عراقيا، لأن هذه القوى المتضاربة التي تجمعت فيه إنما كانت إلباً على العراق وحده ! فبفضل هذه القوى عق الابن أباه، وقتل الأخ أخاه، وكفر المسلم بربه، وبغى العربي على قومه. وبفضل هذه القوى قسم القاسم العراق على نفسه، وزعزع بالفتنة الحمراء (والكراسة الرمادية) الإيمان والاطمئنان في نفوس أهله، وقتل الناس بعضهم ببعض حتى زهقت في سبيل روحه همسة آلاف روح.

وأصـبحت القتلـى تمـج دماءهـا بدجلـة حتـى مـاء دجلـة أشـكل

ذلك قاسم. أما المهداوي، أو هامان فرعون، فعلى النقيض من زعيمه: زعيمه قادر بغيره وهو قادر بنفسه. وزعيمه جهاز تسجيل يستقبل، وهو محطة إذاعة ترسل، وزعيمه

رأس حكومة " الثورة " سنة وبعض السنة فهدم ولن يبين، وانفعل ولم يفعل، ورأس هو حكمة " الشعب " دون هذه المدة، فأتى بما لم يأت به أحد في تاريخ الإنسان: اخترع لم يخطر مثالها على بال عاقل ولا مجنون: مسرح في ملهى رخيص، في صدره منصة جلس عليها العداة والخصوم وقالوا إنهم القضاة، وعن اليمين منضدة جلس إليها الأفاكون السفاكون وقالوا إنهم المدعون، وعن الشمال قفص حشر فيه الشرفاء الأبرياء وقالوا إنهم المتهمون، وفي الساحة مقاعد اقتعدها المجرمون الحقيقيون وقالوا إنهم المتفرجون ! فإذا بدأت المحاكمة افتتحها الرئيس الصخاب السباب بخطبة حمقاء يسب فيها الخلصاء من ضباط الجيش، والعلماء من رجال الدين، والزعماء من قادة العرب. ثم يفرغ للبريء المتهم فيفرغ عليه كل ما في فمه من بذاء وكل ما في صدره من حقد، ثم يغتصب حق الادعاء فيفند الحق ويؤيد الباطل ويفتعل الوقائع لتتساوق الأسباب إلى تبرير الحكم الذي أعده من قبل أن يفتح الجلسة ويسمع القضية. ثم تنقلب المحكمة سوقاً للمدح والهجاء على نحو ما كان " المربد " في البصرة، فينهض الشعراء الحمر فينشدون في الزعيم " الأوحد " والقاضي الفرد ما تنشده الصراصير القذرة في المستنقع العفن. وفي الختام يقوم المهداوي في هوسة من الزمر والرقص والتصفيق والهتاف العدل والقانون والخلق في ساحة المحكمة شنقاً حتى الموت !.

* * * * *

وا لهفتاة على أبطال العراق وشبابه ! ثاروا على البغي والفساد والاستبداد في الرابع عشر من تموز فطهروا الأرض وحرروا الناس، حتى إذا أخذوا يعوضون ما فقد، ويصلحون ما فسد، ويجمعون ماشت، قامت قيامة الشيوعية المحلية فانبعث عبد الإله في عبد الكريم، وحلت روح " نوري " في جسد " فاضل " ولآزرتهما عناصر الشر جمعاء، فأطفأوا الثورة بدماء من شبوها من الضباط الأحرار، وفجعوا الوطن العربي كله في صفوة من بنيه الأبرار، وأغلقوا بيوت الموصل وكركوك وبغداد على أيامي ويتامى وعجزة، قتلوا عائليهم أو اعتقلوا أهاليهم، وتركوهم للدموع والجوع والقلق والخوف والقلق والخوف كالأغصان الأماليد والأزهار النواضر اجتثت أصولها من فوق الأرض فما لها من قرار.

أزمة وتنفرج، وغمرة وتنجلي، وأمه يصهرها القدر في بوتقة الخطوب، وستنكشف إما عن حديد خبث وإما عن ذهب خالص. وخلوص الجوهر هو المعهود في طبع العراق والمعروف من تاريخه لم يغمض أبداً على قذى، ولم يصبر طويلا على ضيم، إنما يصبر بمقدار ما يتحفز للوثوب، فإذا وثب كسر القيود وحطم الأغلال وأدب الطغاة.

إن العراق يعوق ولكنه لا يضل. ويستذل ولكنه لا يذل. فالخوف عليه من خطر الانحلال السياسي الذي يفقده الإرادة ويسلبه الاختيار ويحرمه الأمن ليس له سند محقق من ماضيه؛ إنما الخوف المحقق عليه هو من عقبي هذه الظاهرة المخيفة التي بدت فيه بعد أن قتل الثوار وزيفت الثورة؛ هذه الظاهرة هي ارتداد فريق منه عن عقيدته وعروبته استجابة إلى دعوة هدامة. ومثل هذه المحنة التي تصيب الشعب في دينه أو ضميره لا يكشف ضرها غير الله. ولله في العراق جنودا وأولياء يتولاهم لماء السنة وفقهاء الشيعة، وقد أهاب بهم الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يعلنوا الجهاد الروحي في سبيل الله والوطن ليردوا الضوال الشوارد إلى القطيع، ويرجعوا الآراء المتفرقة إلى الرأي الجميع. والله رب العالمين وولي المؤمنين قد تكفل بالحفظ لخير دين أنزل بالحق، وبالنصر أمة أخرجت للناس.